قالـت: أرى فوديـه قـد نـورا دعابـة توجـب أن أدعبـا
قلـت يـا بـأبي: إنـه قـد ينـتج المهـر كـذا أشـهبا

٣. ابن عبد ربه (٢٤٦. ٣٢٨هـ):

حياتـه ومكانتـه:

هو أحمد بن محمد ابن عبد ربه،[٢] يكنى أبا عمر، كان أبرز أدباء عصره، ولد سنة ٢٤٦هـ ونشأ في قرطبة نشأة علمية، متصلاً بعلماء عصره، وكان أبرز الذين تتلمذ عليهم ابن وضاح، وبقي بن مخلد، والخُشني.[٣] اتصل بأمراء عصره، الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وابنيه المنذر وعبد الله، وله فيهم مدائح شعرية كثيرة، كذلك وصلت إلينا مدائحه في بعض قواد عصره، أمثال عبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وإبراهيم بن حجاج، كذلك مدح الكاتب عبد الله بن محمد الزجالي، وتوفي بعد أن أصيب بمرض الفالج سنة ٣٢٨هـ، وتلوح لنا ثقافة الشاعر بشكل واضح في كتابه العقد الفريد الذي جاء على نحو موسوعي، ملماً بثقافة عصره إلماماً واسعاً، كذلك تتجلى هذه الثقافة للدارس في ما وصل إلينا من أشعاره، لا سيما في الباب الذي عقده للأمثال.[٤]

لقب بألقاب منها: شاعر الأندلس،[٥] ومليح الأندلس[٦] ويقال إن المتنبي وصفه بأنه أشعر القوم،[٧] أما ابن شرف القيرواني (ت٤٦٠هـ) فقد أثنى على أشعاره في مرحلتي الشباب والشيخوخة وقال "وهو في كل ذلك فارس ممارس، وطاعن مداعس"،[٨] ووصفه ابن حيان (ت٤٦٩هـ): "زعيمهم وسابق حلبتهم، الفحل الخنذيذ، والصناع المجيد"[٩] وباهى به مواطنه الشقندي (ت٦٢٩هـ) في رسالته التي نوّه فيها بفضائل الأندلس.[١٠]

ديوانـه وموضوعاتـه:

اعتُنى بديوان ابن عبد ربه في عهد مبكر، حيث رأى نسخة منه أبو عبد الله الحميدي صاحب جذوة المقتبس في نيف وعشرين جزءا، من جملة ما جمع للحكم

---

١ ق ٥.
٢ ينظر في ترجمته: تاريخ علماء الأندلس، رقم ١١٨. جذوة المقتبس، رقم ١٧٢. المطمح، ٢٧٠. بغية الملتمس، رقم ٣٢٧. وفيات الأعيان، رقم ٤٥. رايات المبرزين، رقم ٦٤.
٣ يراجع فصول في الأدب الأندلسي، ٤٦. وقد وردت إشارة في العقد الفريد إلى رحلة قام بها إلى بلاد المشرق، العقد، ٢٨٠/٣. ظهر الإسلام، ٨٥/٣.
٤ العقد الفريد، ١٣٧/٣.
٥ الجذوة، ١٠٣.
٦ معجم الأدباء، ٢٢٢/٤.
٧ قضايا أندلسية، ص ٦٥.
٨ الذخيرة، ٢١٠/١/٤.
٩ المقتبس، ٤١، ط باريس.
١٠ النفح، ١٩٣/٣.

المستنصر، وبعضها بخط الحكم نفسه،[1] الذي عرف عنه هواه بجمع الكتب، وهو حجة عند أهل العلم، وقد فقد ديوانه مع ما فقد من مصادر الأندلس الشعرية، وتجددت الحاجة إلى جمع ديوانه، فنهض لها ثلاثة باحثين في سنوات متفاوتة، وكانت أول المحاولات لموسى رزق ريحان بعنوان: شعر ابن عبد ربه جمعاً وتحقيقاً ودراسة.[2]

وأما المحاولة الثانية فقد قام بها محمد بن تاويت بعنوان: شعر ابن عبد ربه[3] وجاءت المحاولة الثالثة على يد محمد رضوان الداية بعنوان: ديوان ابن عبد ربه.[4]

ولعل أنضج هذه المحاولات هي المحاولة الأولى وإن كانت غير متيسّرة بين أيدي الباحثين إذ لما يزل في حكم المخطوطات... وأما المحاولتان الأخريان فقد اتسمتا بالسرعة وعدم الأناة لافتقاد الجمعين إلى شروط التحقيق العلمي في هذا المجال، وجهد الداية في جمع أشعار الشاعر واتباعه المنهج العلمي كان أفضل من زميله محمد بن تاويت وعلى الرغم من أناقة الطبعة فإن القصائد جاءت غير مرقمة وكذلك الأبيات، كما أنه لم يطرد ذكر مناسبة الأبيات، ومجموع ما ورد من تلك الأشعار جاء في حوالي ثلاثمائة قطعة وقصيدة شعرية تضمنت ما يقارب ألفاً وثلاثمائة بيت تضاف إلى ذلك أرجوزته في مغازي عبد الرحمن الناصر وهي في (٤٤١) بيتاً وأرجوزته الأخرى في العروض في (١٩٢) بيتاً.[5]

لم تختلف موضوعات الشاعر عن موضوعات الشعر الأندلسي التي نظم فيها شعراء عصره، فقد تصدر **المديح** تلك الموضوعات، وهو موضوع تشابكت فيه موضوعات أخرى، منها وصف المعارك والغزوات الإسلامية، التي اشترك فيها أمراء الأندلس أنفسهم، وفيها صور المقارعة والجلاد، والحرب والجهاد، وفيها حلاوة النصر، وبشاشة القيم الإيمانية التي علت راياتها وسمقت، بالهمم القعساء...

وأولى مدائحه تقترن بالأمير محمد (٢٣٨. ٢٧٣)، وما وصل منه نزر يسير، إذ كان الشاعر في عقده الثالث ومن هذا النزر ما جاء في الديوان نقلاً عن ابن حيان في مقتبسه، قصيدة في وصف منية كنتش وهي في ثمانية عشر بيتاً أولها:[6]

ألمّا على قصر الخليفة فانظرا ... إلى مُنية زهراء شيدت لأزهرا
مزوقة تستودعُ النجم سِرَّها ... فَتحسبه يصغي إليها لتُخبرا

---

١ جذوة المقتبس، ص ١٠١.
٢ وهي رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، جامعة القاهرة، ١٩٧١.
٣ صدر ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٧٨، في مائة وصفحتين أورد فيه ٢٥٧ مقطوعة وقصيدة في ١٢٥٣.
٤ سلسلة دراسات أندلسية، ١٠، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩، في ٢٤٧ صفحة، ألحق به فهارس للقوافي والأعلام والمصادر وقد اجتمع فيه ٢٩٣ قطعة في ١٢٩٣ بيتاً بضمنها الأرجوزتان في تاريخ الناصر وفي العروض. وينظر اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، أشار إلى أن المستشرق الأمريكي داتور كاول حقق ديوانه كذلك، ص ٩٤.
٥ تضمن مجموع الأستاذ محمد بن تاويت ١٢٥٣ بيتاً.
٦ ديوانه، ص ٦٨.

ويسترسل في وصف المنية حتى يأتي على آخرها ليقول:

تفكَّهْ أمينَ الله وابنَ أمينه بجنةِ دُنيا رائحاً ومبكرا
إمامَ الهدى لا زلت في ظل حَبْرَةٍ ولا زلتُ أكسوك الثّناء المحبَّرا

وله في ولده المنذر بن محمد (٢٧٣. ٢٧٥) من قصيدة طويلة قوله:[١]

بالمنـــذر بـــن محمـــد شَـــرفتُ بـــلادُ الأنـــدلسْ
فـــالطير فيهـــا ســـاكنٌ والـــوحشُ فيهـــا قـــد أنـــسْ

وقوله في مدح خلفه عبد الله بن محمد (٢٧٥. ٣٠٠):[٢]

خلافـةُ عبـدِ الله حـجٌ عـن الـورى فـلا رَفَـثٌ في عصـره وفسـوقُ
تجلـت ديـاجي الحيـف عـن نـور عدلـه كمـا ذُرّ في جُنحِ الظلام شـروقُ
وثقَّـفَ سـهمَ الـدين بالعَـدل والتقـى فهـذا لـه نصـل وذلـك فـوْقُ

والأبيات من قصيدة طويلة جاءت في الديوان في حوالي ثلاثين بيتاً يستهلها بالغزل فيقول:

أرقت وقلبي عنك ليس يَفيق وأسعدتَ أعْدائي وأنت صديق

وله فيه قصائد أخرى.[٣]

وقد أمضى حوالي ربع قرن من سني حياته الأخيرة في خلافة الناصر، وله فيه مدائح كثيرة منها ما قاله في بيعته:[٤]

يا من عليه رداءُ البأسِ والجودِ من جودِ كفّك يَجري الماءُ في العودِ
وبادَرَتْ نحوَك الأبصارُ واكتحلتْ بحسن يوسفَ في محراب داودِ

وله فيه قصائد أخرى كثيرة يؤرخ فيها لغزواته في الأندلس،[٥] ومنها ما ساقه في أول غزوة غزاها وهي المعروفة بغزاة المنتلون سنة ٣٠٠هـ افتتح بها سبعين حصناً ومطلعها:[٦]

قد أوضح الله للإسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنما ألبست وشياً وديباجا
ماتَ النفاقُ وأعطى الكفرُ ذمَّتَه وذلتْ الخيلُ إلجاماً وإسراجا
وأصبحَ النصرُ معقوداً بألوية تطوي المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلتَ في قبة الإسلام مارقةً أخرجتَها من ديار الشرك إخراجا
في نصف شهرٍ تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
تملا بك الأرض عدلاً مثلما مُلِئت جوراً وتُوضحُ للمعروف مِنهاجا

---

١ الديوان، ص ٩٤.
٢ الديوان، ص ١١٤.
٣ الديوان، ص ٤٣.
٤ الديوان، ص ٥٤.
٥ الديوان، ٣٨، ٤٥، ٥٤، ٦٤، ١٢٧.
٦ الديوان، ص ٣٥.

وواضح في مدائحه لأمراء الأندلس، مزجه بين المديح ووصف معارك الجهاد التي كانت قائمة على قدم وساق، وكانت أبرز سمة مقرونة بالأمراء. وقد أرخ لنا غزوات ممدوحه الأثير، في أرجوزة أشرنا إليها آنفاً، منذ توليه الحكم سنة ٣٠٠ حتى سنة ٣٢٢هـ، وللشاعر مدائح في أشهر قواد عصره، ممن أشرنا إليهم آنفاً.[١]

والموضوع الثاني الذي يلي المديح هو **الغزل**، إذ يتضمن الديوان قصائد عديدة في هذا الباب، ويبدو أنها كانت على درجة عالية في البلاغة والبراعة، على نحو ما يروي ياقوت الحموي من أن أبا الطيب المتنبي لقي أبا الوليد بن عسال الأندلسي في مسجد عمرو بن العاص فاستنشده لمليح الأندلس ابن عبد ربه فأنشد يقول:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... دراً يعود من الحياء عقيقا!
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرتَ وجهك في سناه غريقا
يا من تقطّع خصره من رقّةٍ ... ما بال قلبك لا يكون رقيقا؟!

فلما أكمل ابن عسال إنشاده، استعاده المتنبي ثم صفق بيديه، وقال:

"يا ابن عبد ربه، لقد يأتيك العراق حبواً"،[٢] وهي شهادة يعتز بها الأندلسيون لشاعرهم وقد يختلف النقد الحديث في إعجاب المتنبي بالأبيات، لكن حكمه النقدي يمثل ذوق العصر آنذاك، والبراعة الفنية تكمن في لغة الشاعر وأسلوبه، على نحو ما عبّر عنها بدير حميد بقوله: "ولا نرى في هذا الشعر جديداً في الموضوع ولا في المعاني الجزئية، لأنها كلها مما طرق المشارقة، ولكننا نجد حلاوة في اللفظ وسهولة، كما نجد افتناناً وبراعة في الصياغة".[٣]

وهي قصائد لم تصدر عن تجربة فعلية على نحو ما تشير إلى ذلك حياته التي نشأ عليها، بل انطوت على نزعة تقليدية لشعراء الغزل، وليس معنى ذلك أنها افتقدت عنصر صدق التجربة الشعورية، فقد ضمها بدير متولي حميد في باب الغزل الذي بعثت عليه القوة الفنية، في الشعر.[٤] وأكثر تلك القصائد تردُ في العقد الفريد، في باب شواهده على الأوزان الشعرية يذيل كل قطعة ببيت شعري لشاعر مشهور وقد انتظم منها ثلاث وستون قطعة كل واحدة تتراوح بين أربعة وستة أبيات وإليك هذه القطعة:[٥]

زادني لومك إصرارا ... إنّ لي في الحب أنصارا
طار قلبي من هوى رشأ ... لو دنا للقلب ما طارا

---

١ ينظر ديوانه، ٩٣، ١٥٤، ٥٥، ٨٩.
٢ مطمح الأنفس معجم الأدباء، ٢٢٢/٤. ديوانه، ١٢٠.
٣ قضايا أندلسية، ٦٥.
٤ نفسه، ٢٣١.
٥ العقد الفريد، ٤٤٧/٥ والبيت الأخير لعدي بن زيد العبادي. العقد، ٤٤٧/٥هـ٢. والأصل في عروض البيت الأول "أضراراً" والصواب ما أثبتناه.

أنضجت نار الهوى كبدي ودموعي تطفئ النار
ربّ نارٍ بتّ أرمقها تقضم الهندي والغارا"

ومن أبياته في هذا الباب قوله يصف ساعة الفراق:[1]

ودّعتني بزفرة واعتناق ثم نادت متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يومٍ ليتني مت قبل يوم الفراق!

ومما يلاحظ في قصائده الغزلية أنها في غالبها تأتي على صورة مقطعات شعرية وأنها يختمها في العادة ببيت شعري من قصيدة مشهورة.[2] فهل كان الشاعر يحتذي قصائد عربية ذائعة، أم كان معارضاً؟ أم أنه ذهب مذهب من يضمّن في أبياته أبياتاً من الشعر العربي؟ أما الاحتمال الأول فلا، وأما أن يكون معارضاً فتلك نزعة شهدنا أبعادها في مواطن كثيرة من شعره، وقد لا تخلو المعارضة من فن التضمين.

ويؤلف **شعر الآداب والأخلاق الإسلامية** موضوعاً ثالثاً في أشعار الشاعر وتأتي هذه القصائد في سياق باب الأمثال في عقده:[3]

والحر لا يكتفي من نيل مكرمة حتى يروم التي من دونها العطبُ
يسعى به أمل من دونه أجل إن كفّه رهبٌ يَستدعِه رغب
لذاك ما سأل موسى ربّه ﴿أرني أنظر إليك﴾[4] وفي تسآله عجب
يبغي التزيد فيما نال من كرمٍ وهو النجي لديه الوحي والكتب

وقوله في معنى فساد الإخوان:[5]

أبا صالح أين الكرام بأسرهم أفدني كريماً فالكريم رضاءُ
عذيريَ من خلق تخلق منهم غباء ولؤم فاضح وجفاءُ
حجارة بخلٍ ما تجودُ وربّما تفجّر من صُمّ الحجارة ماءُ
ولو أن موسى جاء يضرب بالعصا لما انبجست من ضربه البخلاءُ

وله أبيات ينكر فيها التسويف وخلف الوعد ويجنح فيها إلى نقد المجتمع لاستشراء الخصال السيئة فيه.[6] وقوله في مكارم الأخلاق وقد ذكر قبل أبياته قولاً منسوباً للحكماء: "الأيام مزارع فما زرعت فيه حصدته":[7]

يا من تَجلّدْ للزمان أمّا زمانك منك أجلد

---

١ الديوان، ١٢٢.
٢ العقد الفريد، ٥/٤٤٣ . ٤٧٧.
٣ ديوانه، ٢٣.
٤ اقتباس من قوله تعالى، الأعراف: ١٤٣.
٥ ديوانه، ١٥.
٦ ديوانه، ٢٥.
٧ ديوانه، ٥٩.

سـلّط نهـاك علـى هـوا ... كَ وعِـد يومـك لـيسَ مـن غـد
إن الحيـاة مـزارع ... فـازرع بهـا مـا شـئت تحصـد
والنـاس لا يبقـى سـوى ... آثـارهم والعـين تفقـد

وله أبيات في هذا المجال في أدب عيادة المريض.[1]

والموضوع الذي يتصل بشعر الآداب الإسلامية، ويأخذ حجماً واسعاً من الديوان هو شعر الزهد الذي وصلت إلينا منه قصائد كثيرة ذهب في بعضها شاعرنا مذهباً جديداً أطلق عليه تسمية (الممحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائد تقدمت في حياته الأولى يلتزم الوزن والقافية وحركة الروي ولكنه ينقض نزعته المتساهلة في باب الغزل ويشير إشارة صريحة إلى تلك القصائد والصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي واضحة، يقال محص الذهب بالنار، إذا أخلصه مما يشوبه حيث يضمن قصيدته الثانية شطر بيت من قصيدته الأولى وجل ما وصل إلينا من هذه القصائد لا تتجاوز أبياتها خمسين بيتاً، ومن ممحصاته قوله:[2]

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدر ... ولا يقضّى له من عيشه وطر
عاين بقلبك إن العين غافلة ... عن الحقيقة واعلم أنها سَقَرُ
سوداء تزفر من غيظ إذا سَعرت ... للظالمين، فلا تبقي ولا تذر
إن الذين اشتروا دنيا بآخرة ... وشقوة بنعيم ساء ما تجروا
أنت المقول له، ما قلت مبتدئاً ... "هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر"؟

وهو يعارض فيها أبياتاً قالها في خطاب فتى كان يألفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك فكتب له:[3]

هـلا ابتكـرت لبـين أنـت مبتكـر ... هيهـات يـأبى عليـك الله والقَـدَرُ
ما زلـت أبكي حـذار البـين ملتهفـاً ... حتى رثـى لي فيـك الـريح والمطـرُ
آليـتُ ألا أرى شمسـاً ولا قمـراً ... حتى أراك فأنت الشـمس والقمرُ

وقد أشار الحميدي إلى غزارة أشعاره في هذا الباب وحدد مفهوم الممحصات بقوله: "وذلك أنه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد، محصها بها كالتوبة منها والندم عليها، كما أنه وصف هذه الأشعار بأنها كثيرة جداً"،[4] وقد أفرد الباحث علي إبراهيم أبو زيد كتاباً فيه.[5]

---

١ ديوانه، ٧١.
٢ الديوان، ص ٧١.
٣ الديوان، ص ٧٠.
٤ جذوة المقتبس، ص ١٠٢.
٥ الممحصات في شعر ابن عبد ربه الأندلسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦.

شاعريته وسماته الفنية:

فيما تقدم وقفنا عند موضوع شعر ابْن عبد ربه وأشرنا إلى إعجاب نقاد عصره بشاعريته، التي اتسمت بالغزارة في النتاج، والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثين أنه كان نقطة تحول في الشعر العربي بالأندلس وقد تأثر به شعراء أندلسيون كثيرون.[1]

وقد تناول شاعريته، وأبرز سماتها، عدد من الباحثين منهم: إحسان عباس الذي يرى أن شعره يقع بين قطبين ويشغل مرحلتين،[2] أما القطبان فهما البديهة والكد الذهني والمقصود بالبديهة السهولة، وطابع الخفة الارتجالية، وربما كان من أثر ارتجال أشعاره في رأي إحسان عباس. أن التيار العاطفي في شعره مفقود ومختنق، حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفة، كموت أبنائه.[3]

لقد كانت الأخبار المتصلة بأشعاره تنبئنا عن بدهيته في النظم وعدم تكلفه ومكابدته فيه بما يشير إلى أن الشاعر غير متكلف، وأنه صاحب شاعرية قوية، وملكة مطبوعة، ولا نرى في هذه البداهة والطبع، ما يتناقض مع جودة الشاعرية، وصدق العاطفة، كما أننا نجد الشاعر يميل إلى العناية بصياغة أبياته، لتتحقق له فيها صنعة فنية، ألمح إليها بدير متولي حميد في قوله "فإن سمة الاختراع وجدّة التفكير وبراعة التصوير طغت على أشعاره"[4] وتمثلها إحسان عباس في ممحصاته التي نظمها معارضاً قصائده الشعرية المبكرة ناقضاً إياها.[5]

وأما المرحلتان اللتان شغلتهما أشعاره فتقترنان بقطبي شعره، اقترن شبابه بالبديهة وشيخوخته بالكد والصنعة وتتجلى المرحلتان بوضوح في مذهبه الفني، الذي ابتدعه حين عارض أشعار المرحلة الأولى في مرحلته الثانية، واختص الأدب الأندلسي بفن طريف سماه الممحصات وهي أبيات نظمها في الزهد والتوبة، عما تقدم من أشعاره، في مرحلة الشباب، التي كان يجنح فيها إلى شيء من التساهل بالمتع المباحة حين أقبل على الحياة في جوانبها التي تحقق تلك المتع، على نحو ما يعبر عن ذلك بقوله عن الغناء والشراب:[6]

دينـنـا في السّـماع ديـنٌ مدينيـ ـيّ وفي شـربنا الشـراب عراقي

وله من أبيات أخرى يشير صراحة إلى الشراب فيقول:[7]

أما الشراب فإني لست أقربهُ ولست آتيك إلا كسرتي بيدي

---

١ قضايا أندلسية، ٦٨.
٢ تاريخ الأدب الأندلسي، ١٩٤/١.
٣ نفسه، ١٩٥.
٤ قضايا أندلسية، ٦٧.
٥ تاريخ الأدب الأندلسي، ١٩٥/١.
٦ ديوانه، ١٢٥ يشير بذلك إلى مذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة في إباحة السماع، ومذهب أبي حنيفة في إباحة شرب النبيذ.
٧ ديوانه، ٥١.